



ISSN: 1994-4217 (Print) 2518-5586(online)

Journal of College of Education

Available online at: <https://eduj.uowasit.edu.iq>

**Dr. Khalid Abdulla
kadhum**

University waist /
collage of basic
education

Email:

Kabdulla@uowasit.edu.iq

07809710700

Keywords:

**Abdullah bin
Rawahah, Cultural
References, Poetry of
the Islamic Call**

Article info

Article history:

Received 15.May.2022

Accepted 17.Aout.2022

Published 15.Nov.2022



Cultural references in the poetry of Abdullah bin Rawahah

A B S T R A C T

The research seeks to define the cultural references and their role in consolidating and supplying the poetic text of one of the most prominent poets of the Islamic era. He is the poet Abdullah bin Rawahah, and how he employed these various cultural references; to form a source from which the poet draws his poetic material, as this awareness of these references formed a dominant construction on many of the poet's texts. The research tried to identify the different mechanisms that the poet harnessed to employ these references. The research also aimed to reproduce them in a manner that is commensurate with the poet's subjective experience and the different conditions of saying .

© 2022 EDUJ, College of Education for Human Science, Wasit University

DOI: <https://doi.org/10.31185/eduj.Vol49.Iss2.3305>

المرجعيات الثقافية في شعر عبدالله بن رواحة

م.د. خالد عبد الله كاظم حسين

جامعة واسط / كلية التربية الأساسية

الملخص :

يسعى البحث لتعريف بالمرجعيات الثقافية ، ودورها في بناء ، وإمداد النص الشعري عند شاعر من أبرز شعراء العصر الاسلامي الكبار؛ ألا وهو الشاعر عبدالله بن رواحة ، وكيف وظّف هذه المرجعيات الثقافية المتنوعة ؛ لتشكل مصدراً ، ومنبعاً ينهل منه الشاعر مادته الشعرية ، إذ شكّل وعي الشاعر بتلك المرجعيات ضرباً من البناء الذي مهيم على ابداعه الشعري ، وحاول البحث الوقوف على الآليات المختلفة التي سخرها الشاعر في فهم وتوظيف هذه المرجعيات ، ومحاولة اعادة انتاجها بما يتناسب ، والتجربة الذاتية للشاعر ، وظروف القول المختلفة والمقام .

الكلمات المفتاحية : عبدالله بن رواحة , المرجعيات الثقافية , شعر الدعوة الاسلامية

المقدمة :

يُعدّ الشعر حقلاً للإبداع , وإبراز قدرات الشعراء في تجويد النصوص , والتأثير في نفوس المتلقين , ومن خلال هذا الفعل الإبداعي تظهر مكوناتهم الثقافية , ومرجعياتهم المتعددة التي أمدتهم بمصادر القول المختلفة , إذ شكل وعيهم بتلك المرجعيات الثقافية عاملاً مهماً لإنتاج التجربة الشعرية الذاتية لكل واحد من الشعراء , ويشكل النصّ الشعري مناهلاً لمرجعيات ثقافية عديدة , وخلفيات معرفية متنوعة شكلت مصدر إلهام , وإبداع لدى الشعراء , وكيف لا ؛ وهي التي تُعبر عن نفسه وروحه, وكل ما يختلجها بكل صدق , سواء كانت مرجعيات دينية أم فكرية أم اجتماعية أم تاريخية . إذ تفاعلت هذه المرجعيات داخل النصوص الشعرية لتشكل معلماً يفصح عن توجهات الشاعر , وأسلوبه الشعري الخاص , والمتأثر بصورة كبيرة بهذه المرجعيات ؛ لأنّ توظيف المرجعيات في النصّ الشعري يجعله أكثر بلاغة , وجزالة , وقوة في الأسلوب , واللغة , كما تسبغ عليه لمسة ثقافية مميزة , وتفتح للمبدع آفاقاً جديدة تساعده في التعبير عن كلّ ما يجول في نفسه , لذا نجد أغلب الشعراء يعكفون على إقحام مرجعياتهم الثقافية بشكل كبير في أعمالهم الأدبية , فيجعلون منها لبنة أساسية تتمحور حولها نصوصهم الإبداعية , وعبدالله بن رواحة واحد من هؤلاء الشعراء الذين وظفوا تلك المرجعيات , إذ نسج عليها الكثير من نصوصه الشعرية المختلفة , لتعبر عن تجربة الشاعر الذاتية , وتعطي صورة صادقة عن فكر الشاعر , ومرجعياته الثقافية.

المرجعية في اللغة , والاصطلاح :

المعنى اللغوي :

تعددت مدلولات ومفاهيم لفظة (المرجعية) ما بين المدلول اللغوي , والمفهوم الاصطلاحي المتجذر في اللغة , إذ يصعب إعطاء تعريف جامع مانع يجمع كل المدلولات , فقد ذكرت المعجمات اللغوية جملة من المعاني التي تدور حول كلمة (مرجع) , وتكاد جلها تتفق على معنى واحد, ألا وهو العودة والرجوع , فقد جاء في لسان العرب لابن منظور في مادة (رَجَعَ) إذ يقول : (رَجَعَ، يَرْجَعُ، رَجْعاً، رَجُوعاً، رُجُوعاً، رُجُوعاً، رَجَعَاناً، وَمَرْجَعاً، وَمَرْجَعَةٌ : انصرف) , (ابن منظور: 18/1955) وفي التنزيل الحكيم : ﴿ إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى ﴾ (العلق/8) أي الرجوع , والمرجع . وكما وردت لفظة (المرجعية) في المعجم الوسيط في مادة (رجعت) بمعنى : (رجعت الطير رجوعاً , ورجاعاً : قطعت من المواضع الحارة إلى الباردة أي عادت إلى مكانها الأول ومكانها الأصلي بعد هجرتها الطويلة) (علي:18/2013) , وهذا المفهوم اللغوي يغطي مساحة واسعة لجملة مفردات , ومفاهيم فكرية تشكل الهوية المعرفية للنص , والانصراف والرجوع الى ما اكتسبه الشاعر من المعارف المرتبطة بالواقع , والموروث الديني , والأدبي , والتاريخي , والاجتماعي .

المعنى الاصطلاحي : يُعرّف مصطلح (المرجعية) حسب الحقول المعرفية , والمجالات التي يُدرس فيها , على أنّه : (من المفاهيم التي تعمل في اطار تحليل النص الأدبي , وتقنيك مكوناته الأساسية , إذ يمثل المنطقة التي ينهل منها الأديب موضوعاته , ويستقي قضاياها , وأفكاره , وإرثه الحضاري) (علي: 18/2013) , ويعرفها سعيد علوش في معجمه ويصفها بأنها : (العلاقة بين العلامة وما تشير إليه) (علوش:97/2003) , أي تلك العلاقة بين الكلمة والمعنى, وبين ما يقصده المؤلف أو الشاعر من هذه الكلمة, فهي كل ما يوظفه الشاعر أو المؤلف في نصه , ويحمل دلالة خارجية استعان بها لترصين النص . فالمرجع أو المضمون المعرفي بمفهومه الاصطلاحي , يمثل الخلفية الثقافية للنص أو التواصل اللفظي ,

إذ تسهم في تدوين مجموعة المفاهيم والعلاقات الاجتماعية والسلوكية ، وكافة القيم والمفردات التي تشكلت منها الخلفية المعرفية للنص أو الشاعر الذي قال النص (ياكوبسن: 33/1988) .

الثقافة في اللغة ، والاصطلاح :

الثقافة كلمة عامة واسعة الدلالة ، ومن الصعب أن يجمعها مفهوم أو مصطلح يستوعب معناها الدقيق ، لذلك تباينت حولها الآراء ، واختلفت فيها وجهات النظر ، واختلف مفهومها بين الدارسين والمختصين تبعاً لاختلاف المجتمعات البشرية ، واختلاف منابع مقوماتها ، ومصادرها .

المعنى اللغوي:

تتوعد دلالات لفظة الثقافة في المعاجم اللغوية العربية بين الحذق ، والعمل، والفطنة ، أو للدلالة على العلم والمعارف ، فجد مادة (ثقف) في لسان العرب : (نَقَفَ الشيء تَقْفًا ، وَتَقَافًا وَتَقَوْفًا: حَذَقَهُ ، وَرَجُلٌ تَقْفٌ وَتَقُفٌ وَتَقُفٌ: حَازِقٌ فَهْمٌ) (ابن منظور: 69/9, 1955) ، فهي تعني التعلم ، والفهم ، والقدرة على اكتساب العلوم والمعارف ، والحذق بها، وكذلك تعني الفطن ، والذكي سريع التعلم .

المعنى الاصطلاحي:

تعرف الثقافة بأنها : (مجموعة من الصفات الخلقية والقيم الاجتماعية التي تؤثر في الفرد منذ ولادته وتصبح لا شعورياً العلاقة التي تربط سلوكه بأسلوب الحياة ، وفي الوسط الذي ولد فيه ، أي : المحيط الذي يشكل فيه الفرد طباعه وشخصيته) (ابن نبي: 74/1984) أو بمعنى آخر هي : (مجموعة الأفكار ، والمعتقدات ، والمثل ، والرغبات التي تطبع الفرد أو الجماعة بسمات مميزة ، واتجاه نفسي خاص) (الحوفي : 5/ 1965)

ومما تقدم في التعريف اللغوي ، والاصطلاحي لمفردة (الثقافة) ، يمكن رؤية مدى التقارب بين المدلولين ، إذ يشيران إلى الظفر بالأشياء واكتسابها ، وتقويم السلوك بعد ذلك الاكتساب ، وجعل الإنسان مثقفاً ، وعالمياً بكل الأمور . لذا يمكن القول إن الثقافة : هي تلك الصفة التي يجب على كل امرئ أن يتصف بها ، وهي التعلم ، والحذق أي الفهم، الذي يمنحه الذوق ، والحكم السليم .

وتبعاً لذلك ، فإن مصطلحي الثقافة والمرجعية مرتبطان بوشائج وصلات ساعدت على تعالق أحدهما مع الآخر ، فتكون مصطلح (المرجعيات الثقافية) ، التي تعني استحضار الروافد الثقافية المتنوعة كالدين ، والتاريخ ، والتراث ؛ لتحيلها كمرجع لأي نص أدبي ، إذ تحمل هذه المرجعيات (قيمة نصية محايدة بالدرجة الأساس ، أي أنها قيمة جمالية قبل كل شيء) (خرماش : 93/ 1990) ، إذ تبرز توجهات الشاعر ، سواء كان توجهه دينياً ، أو أدبياً ، أو تاريخياً بصورة مباشرة ، أو بصورة إيحائية رامزة ، فتثبت حضوره داخل نصه الإبداعي ، وترسل رسالة مضمرة للمتلقي ، يفهم من سياقها توجه الشاعر ، ومدى الأفكار ، والمعاني التي أثرت في نتاجه الشعري ، وصبغته بألوان تلك المرجعيات الثقافية ، التي أضفت على شعره جواً مليئاً بالحيوية ، والحركة ، والاستمرارية من حيث تداخلها ، وتمازجها مع بعضها البعض في تراكيبها ، ومعانيها .

حياة الشاعر بوصفها مدخلاً لمرجعياته الثقافية :

على الرغم من أن حياة الشاعر لا تكاد تكون من صميم البحث ، لكن الوقوف عندها سيفصح لنا عن بعض المرجعيات الثقافية التي اكتسبها على اختلاف مراحل حياته ، وأثرت في إمداد نصّه الشعري بمنابع فكرية متنوعة . و

شاعرنا هو عبد الله بن رواحة بن ثعلبة بن امرئ القيس بن عمرو بن امرئ القيس الأكبر بن مالك الأغر بن ثعلبة بن كعب بن الخزرج بن الحارث بن الخزرج الأنصاري الخزرجي (ينظر : الذهبي: 374/1972)

وهو شاعر مخضرم عظيم القدر في قومه ، كان يناقض في الجاهلية ، شاعر الأوس قيس بن الخطيم ، نشأ بالمدينة ، وأسلم قبل هجرة الرسول (ﷺ) إليها ، وكان في الإسلام عظيم القدر والمكانة عند النبي (ﷺ) ، وهو أحد الشعراء الثلاثة الذين اختارهم النبي (ﷺ) للرد على كفار قريش ، كان عبد الله بن رواحة منذ إسلامه ، من أشد الناس حباً ، وولاءً ، وطاعة للنبي (ﷺ) ، منذ أن وطأه قدماه المدينة ، وقد لازم النبي (ﷺ) في كل حركاته ، وكان سباقاً إلى العبادة والطاعة وفعل الخيرات ، وشارك في غزوات وحروب المسلمين حتى استشهد في معركة مؤتة سنة ثمان هجرية (القصاب : 12/1981)

أما مكانته الأدبية والشعرية ، فهو من الشعراء الفحول المُجيدين ، وقد وضعه ابن سلام في طبقة شعراء المدن الإسلامية (الجمحي : 215/1, 1980) ، واحتل مكانة مرموقة في كتاب (جمهرة أشعار العرب) فقد وضع ضمن الطبقة الرابعة الذين أطلق عليهم (أصحاب المذاهبات) ، وهم : حسان بن ثابت ، وعبدالله بن رواحة ، ومالك بن العجلان ، وقيس بن الخطيم ، وأحيحة بن الحجاج ، وأبو قيس الأسلت ، وعمرو بن امرئ القيس ، وجميعهم من الأوس ، والخزرج (القرشي : 7/1963) ، وذكره الأمدي في كتابه (المؤلف والمختلف) بالقول : (هو شاعر محسن وفارس) (الأمدي: 126/1991) .

وهذه الإشارات عن مكانة الشاعر الأدبية ، تفتح لنا طريقاً لمعرفة الخلفيات والمرجعيات الثقافية التي صَدَّرَ الشاعر عنها نتاجه الشعري ، وكيف أثرت في بلورة مرجعيته الفكرية التي وسمت نصوصه الشعرية ، وأصبحت علامة بارزة تميز هذا النتاج ، وهذا ما سيثبته البحث في الصفحات القادمة .

المرجعية الدينية :

تُعدُّ المرجعية الدينية والإسلامية منها على وجه الخصوص ، مصدرًا سخياً من مصادر إلهام الشعراء ، والادباء ، وعلى مختلف العصور ، بوصفها عنواناً لكل المقدمات العقائدية في القرآن الكريم ، والحديث النبوي الشريف ، والعبادات ، والشخصيات الإسلامية ، لذا يمكن القول أنَّ : (المرجعيات الدينية مصدر مهم من مصادر الإلهام الشعري عند معظم الشعراء ، وحين يحسن الشاعر توظيف هذه المرجعية على نحو جيد ، فإنه يوفر لنصّه الشعري ديمومة أكثر ، وسعة انتشار أكثر ، وتداول أعلى عند جمهور القراء ، ويعزز من قوة شعره من الناحية الفنية ، والدلالية) (علي: 28/2013) ، إذ وظف الشعراء هذه المضامين الدينية في نتاجاتهم الشعرية ؛ كي يسبغوا على هذه الابداعات مسحة من البعد الأخلاقي ، والثقافي الواعي الذي يصنع هذه الأعمال بهالة نورانية وإيمانية ، ويسهم في بناء الصورة الفنية وتشكيلها ، وانتاج الدلالة الجديدة التي تنتمي جذورها إلى المرجعية الثقافية الدينية ، ومضمونها القرآني ، والحرص على منح المتلقي آفاقاً جديدة من الناحية الدلالية والموضوعية في التفاعل مع التجربة الذاتية، والشعورية لكل مبدع . إذ وجد الشاعر عبدالله بن رواحة في المرجعية الدينية بتفاصيلها الكثيرة ، متفلساً للتعبير عن التجربة الذاتية ، وما يدعم هذا التوجه ، السيرة الخالدة للشاعر ، وما عرف عنه من صدق الإيمان ، والإخلاص لله ، ولرسوله (ﷺ).

وتجلت هذه المرجعيات من خلال اقتباسه من آيات القرآن الكريم وتضمينها داخل النصوص الشعرية، فالخطاب القرآني يعد مصدر المرجعيات الدينية الرئيس تقريباً ، إذ يجسد الهوية الإسلامية بتفاصيلها كلها، ويمنح النص طاقة تعبيرية من حيث براعة التركيب وعمق المعنى ، واستلهام المعاني ، وتضمين الأفكار داخل النص الشعري ، فهذا الكتاب (أعظم كتاب أدبي عرفته اللغة العربية إلى جانب اشتماله على نظام دقيق متكامل) (الصفار : 3/2005) ، وقد تمظهرت هذه

المرجعية من خلال الاقتباسات النصية المباشرة ، لفظاً ومعنى ، وامداد النص الشعري بدلالة الآية القرآنية ، ودمجها في نسيج النص لغرض توسيع المعنى ، واستكمال أبعاد الصورة ، وكذلك الاستشهاد بالأحاديث النبوية الشريفة ، واستحضار قصص الأنبياء والرسل ، وأخرى تجلت في ذكر الفاظ العبادات ، وألفاظ الزهد ، والإيمان بالله تعالى .

شكل الاقتباس القرآني المباشر للآيات الكريمة ، المثال الأوضح لمرجعية الشاعر عبدالله بن رواحة الدينية ، عن طريق استضافة هذه الألفاظ ومعانيها ، واقتباسها اقتباساً نصياً مباشراً ، إذ تظهر براعة الشاعر في استحضار ثقافته القرآنية ، وتفعيل علاقاتها اللغوية والدلالية ، ودمجها في بنية نسيج نصه الشعري ، لتظهر مقصدية الشاعر في التعبير عن الغرض والمعنى المراد ايصاله للمتلقي ، الذي يلمح بدوره هذا التأثير وهذه المرجعية دون عناء أو كدّ ذهني بعيد ، وهذا ما يمكن ملاحظته بصورة واضحة ، وجلية في قوله :

بِسْمِ الَّذِي لَا دِينَ إِلَّا دِينُهُ

بِسْمِ الَّذِي مُحَمَّدٌ رَسُوْلُهُ

أَنَا الشَّهِيدُ أَنَّهُ رَسُوْلُهُ (القصاب : 146/1981)

يتشعب النص بالاقتباس القرآني ، ويحمل الإشارة إلى أكثر من آية واحدة ، ويظهر التطابق بين اللفظ ، والمعنى ، إذ يحاول الشاعر أن يذهب بذهن المتلقي بواسطة هذا الاقتباس إلى الآيات الكريمة بصورة مباشرة ، ففي الشطر الأول إشارة مباشرة إلى الآية : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ (آل عمران / 19) ، وهي إشارة واضحة من الله تعالى بأنه لا دين عنده يقبله من أحد سوى الدين الإسلامي ، وتعاليمه السمحاء ، وفي الشطر الثاني إشارة صريحة ، وواضحة إلى الآية الكريمة : ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُوْلُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ (الفتح / 29) ، إذ يؤكد الله سبحانه وتعالى على نبوة محمد (ﷺ) وأن رسالته صادقة ، والذين معه من المؤمنين أشداء على الكافرين ، رحماء فيما بينهم ، ويكشف ذلك عن اطلاع الشاعر اطلاعاً مباشراً على النص القرآني الكريم ، حتى غدا سلاحاً يتسلح به في التعبير عن افكاره وحججه .

لقد وجد الشاعر في الآيات القرآنية السابقة ، ما يعينه على تجسيد المضمون الديني والمعنى المراد ايصاله ، فجاء استعماله منسجماً تمام الانسجام مع حالة الشاعر ، وظروف قول النص ، حتى استطاع الوصول إلى المعنى المقصود ، وجلب انتباه المتلقي ، والذهاب به إلى المعنى القرآني المراد ، ولا يقف عند هذا الحد بل يذهب إلى التفاصيل مع عدة سور من القرآن الكريم ، إذ يستحضر أكثر من سورة واحدة في نص شعري واحد ، ليعطي صورة واضحة عن عمق الإشارة لتوظيف هذه الألفاظ والآيات وسياقها داخل النص الشعري ، إذ يقول :

شَهِدْتُ بَأَن وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا

وَأَنَّ النَّارَ مَثْوَى الْكَافِرِيْنَ

وَأَنَّ الْعَرْشَ فَوْقَ الْمَاءِ طَافٍ

وَفَوْقَ الْعَرْشِ رَبُّ الْعَالَمِيْنَ

وَتَحْمِلُهُ مَلَائِكَةٌ كَرِيْمٌ

مَلَائِكَةٌ إِلَاهٌ مُقْرَبِيْنَا (القصاب : 165/1981)

تظهر الأبيات عمق إيمان الشاعر ، وحسن إسلامه ، واعتقاده بما أنزل الله سبحانه ، وتعالى في كتبه ، والإيمان بملائكته ، وبما وعد به المؤمنين في اليوم الآخر ، وما أعد للكافرين من عذاب ألیم جزاء كفرهم ، وطغيانهم ، إذ يوظف الآيات بما يخدم غرضه الشعري ، ومناسبة القول ، وهذه الآيات هي : ﴿ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ ﴾ (آل عمران/ 151) ، والآية : ﴿ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ (هود/7) ، والآية : ﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَّةٌ ﴾ (الحاقة/17) ، إذ يظهر الوعي المرجعي الديني فاعلاً مهيمناً على النص ليصبح الموجه والمحرك الأساس للأحداث ، وتوجيهها ، وربطها بذهن المتلقي هذا من جانب ، واكساء النص الشعري جمالاً مضاعفاً من خلال

استعارة الألفاظ القرآنية المناسبة ، وما تحمل من جرس موسيقي يناسب غرض القصيدة ، والرغبة في إثارة المتلقي ، وتوجيهه للتدبر ، والموعظة ، والإنذار ، والرشاد من جانب آخر . وعلى الرغم من أن المادة القرآنية المقتبسة ، وفي كثير من الأحيان تفصل عن سياقها النصي العام إلا أنها تقدم سياقات جديدة ، ولا سيما عندما يلجأ الشاعر إلى الإفادة من النص القرآني إذا ما وجد فيه ما يلبي حاجات نفسية وموضوعية تخدم غرض القصيدة المطلوب .

ويلجأ الشاعر في موضع آخر ، وهو يستحضر مرجعيته الدينية الثقافية الى اقتباس المفردة القرآنية التي تحمل خصوصية دلالية داخل السياق القرآني ، فيوظفها الشاعر داخل النص لتعطي بُعداً جديداً في التصوير بفضل طاقتها التعبيرية ، وشحناتها الفكرية المرتبطة بذهن القارئ ، وهذا ما يتضح من خلال ورود لفظة (الموت) في أكثر من نص واحد ، إذ يمثل الموت النهاية الحتمية للأشياء ، وهو أكثر الاحداث العظيمة التي تسبب الألم ، والمرارة في النفس الانسانية ، وبما يحمله من فلسفة عميقة مرتبطة بما بعد الموت من حياة أخرى مرتبطة بالعقيدة الايمانية والأجر والثواب الذي ينتظر المؤمنين ، فيعبر عبدالله بن رواحة عن هذه الفكرة بالقول :

يَا نَفْسُ إِلا تَقْتُلِي تَمُوتِي

هَذَا جَمَامُ الْمَوْتِ قَدْ ضَلَيْتِ

إِنْ تَسَلِمِي الْيَوْمَ فَلَنْ تَفُوتِي (القصاب : 154/1981)

يظهر النص الثيمة القرآنية التي ركز عليها الشاعر وهو حتمية الموت ، والتي تتطابق مع الآية القرآنية : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴾ (آل عمران / 185) ، إذ يؤمن الشاعر بحتمية هذا القدر المحتوم ، وإن سلمت منه اليوم فهو ملائكتك غداً ، وهذا من منطلق ايمان الشاعر ومرجعياته الدينية التي تؤمن بقدر الله سبحانه وتعالى وحكمته في هذا الاستحقاق الذي هو مصير كل مخلوق ، إذ همته هذه المرجعية لرسم لوحة فنية معبرة ذات تأثير أوسع في ذهن المتلقي ، لتظهر بؤرة التعالق النصي التي ربطت بين النصين ؛ وهي دلالة لفظة (الموت) ، ولكن ليس الموت الاعتيادي الذي يكون مصير الناس العاديين ، بل هو بداية الحياة الجديدة التي تنتظر كل مؤمن مجاهد ومكافئة الله سبحانه وتعالى بدار الآخرة وهي الجنة ، وهذا ما يؤكد الشاعر في نص آخر بالقول :

أَيُّهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ فِي جَنَاتٍ يَشْرَبُونَ الرَّحِيقَ وَالسَّلْسَبِيلَا (القصاب : 154/1981)

وهي اشارة واضحة وصريحة لنص ومضمون الآية القرآنية : ﴿ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا ﴾ (الانسان / 17) ، فهؤلاء المؤمنون يوم لقاء ربهم سيكافئون الجنة ، ويتمتعون بملاذاتها ، وما تحوي من ألوان النعيم ، والشراب ، ومنها (الرحيق) ، وهو خمر الجنة الذي لا يشبه خمر الدنيا ، إذ يخرج من عين السلسبيل الصافية ، والسائغة الشراب ، وكل ذلك تأكيد لعقيدته الدينية الخالصة ، وعقيدة جميع المسلمين الطائعين ، وهو يستحضر صفات الجنة ليوظفها في نصه الشعري ، واغناء تجربته الشعورية ، وشحن موقفه بدفق معنوي ، وتشبيه عميق ، وهو يصور تلك الحياة الخالدة التي يسعى اليها جميع المؤمنين . فمرجعية الشاعر الدينية هي التي تتكلم عن ما يجول في ذاته ، فهي تعبير عن صوت الشاعر أو فكره ، وفي الوقت نفسه هي أداة لهيمنة النسق في فكر الشاعر لكل ما ترسخ في مكنون ذاته . (ينظر :

بعلي : 21/2007)

ولم يقتصر تأثر الشاعر بمرجعياته الدينية عند الاقتباس القرآني ، وتضمن النص الشعري بعضاً من آياته الكريمة ، بل عمد في نصوص أخرى إلى توظيف القصص القرآني ، وذكر الأنبياء والرسل ، وأخبارهم بما ينسجم مع الغرض ، والفكرة المراد إيصالها عبر هذه النصوص ، بما تحمل هذه القصص من اقناع عقلي ، وتأثير وجداني ، وما تضم من إشارات العبرة والتدبر ، والإنذار ، والهداية ، فهذه القصص (سلاح نفسي في اقناع المخالفين عن طريق الجدل ، والحوار ، وتخرجنا من

حدود أنفسنا إلى جَوِّ أحداثها التي رتبت على أساس بلاغي خاص في تدوينها , وعرضها اعتماداً على ذكر وقوع الحادثة ومناسبتها) (التهامي : 23/1971) , فكان تعامل الشاعر مع قصص الأنبياء تعاملًا ينم عن وعيه , وإطلاعه على قصص القرآن الكريم , وأخبار الأنبياء , وسيرهم , فجاء التوظيف في هذا الجانب يحمل صفة الاختزال والإشارة القصيرة الرامية , دون الاغراق في تفاصيل القصص المختلفة , فنراه يكتفي في كثير من الأحيان بذكر أسماء الأنبياء دون الخوض في تفاصيل قصصهم , أو الاغراق في أحداثها, يقول في أحد النصوص :

شَهِدْتُ - بِأَذْنِ اللَّهِ - أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولَ الَّذِي فَوْقَ السَّمَوَاتِ مِنْ عَلٍ
وَأَنَّ أَبَا يَحْيَى وَيَحْيَى كِلَيْهِمَا نُهُ عَمَلٌ فِي دِينِهِ مَتَقَبَلِ
وَأَنَّ الَّذِي عَادَى الْيَهُودَ ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولٌ أَتَى مِنْ عِنْدِ ذِي الْعَرْشِ مُرْسَلِ
وَأَنَّ أَخَا الْأَحْقَافِ إِذْ يَغْذُلُونَهُ يُجَاهِدُ فِي ذَاتِ الْإِلَهِ وَيَغْدِلُ (القصاب:163/1981)

يبدو أنَّ مرجعية الشاعر الدينية قد أحكمت سيطرتها داخل بنية النص , وتفاعلت مع النص الديني بعلاقة تناصية تمثلت بعودة الشاعر للاستشهاد بأكثر من قصة واحد من قصص الأنبياء المختلفة , ومضامينها التي تتوافق مع دلالات الخطاب الشعري الذي يرمي إليه , الأمر الذي أنتج نصاً جديداً يعتمد على تكثيف المعنى , ويستقي مرجعيته من النص المقدس (القرآن الكريم) , فيإراد هذه القصص (لم يكن مجرد أداة لملء الفراغ بالأحاديث الطريفة , بل كان له وظيفة حضارية , واجتماعية , ونفسية) (البستاني : 12/1428هـ) , إذ يشكل إيرادها متنفساً لانفعالات الشاعر النفسية , وفي حوادثها ومعطياتها المختلفة عبرة , وموعظة لمختلف الأجيال والعصور , فقد جاءت متناسقة مع أسلوب القرآن الذي يخاطب حاسة الوجدان والشعور الديني بلغة الجمال , والبالغة العالية .

المرجعية التاريخية :

تمثل المرجعية التاريخية رافداً مهماً من مصادر الإلهام الشعري عند كثير من الشعراء , ولمختلف العصور , فهي لا تقل شأنًا عن بقية المرجعيات الثقافية الأخرى , بما تحمل من معادلات موضوعية وفنية , يسقطها الشاعر على تجاربه الذاتية ؛ لتطويع رمزياتها , ودلالاتها بطريقة ابداعية , وإبقاء ديمومتها , وإقامة علاقة تناصية جديدة بين هذه المرجعيات , وما تحمل من رمزية فكرية , وتاريخية بينها وبين النص الجديد , إذ يسعى الشاعر عبر هذا الاتكاء التاريخي لمنح النص طاقة تعبيرية جديدة , واضفاء نوع من الموضوعية , والمصدقية التي تحوله إلى ما يشبه حكاية تروي لنا تاريخاً غابراً , أو سيرة لشخصية تاريخية مهمة .

وبعد الاطلاع على ديوان الشاعر عبدالله بن رواحة , يمكن ملاحظة أبرز مرجعياته التاريخية التي استقى منها مادة لرفد نصوصه , والتي ظهرت في الاتجاهات الآتية :

1- الشخصيات التاريخية :

احتلت الشخصيات التاريخية عبر العصور المختلفة , مكاناً واسعاً داخل النصوص الشعرية عند الكثير من الشعراء , فهي واحدة من العناصر التي تشكل التاريخ , وإحدى المصادر الثقافية التي تتأزر مع المصادر الأخرى , لتشكيل مادة الشاعر التي يستقي منها ما يشيد بناء نصه الشعري , وهو حين يوظف هذه الشخصية التاريخية فإنه لا يسعى إلى ذكرها ذكراً عابراً فقط , بل يحاول الافادة من رمزياتها , وما تحمل من دلالة في ذهن المتلقي الذي يحمل في مخيلته أبعاد وصور

تلك الشخصية , ومعطياتها , والدور التاريخي الذي تمتعت به في حقبة من الزمن , الأمر الذي يجعل من توظيف هذه الشخصيات التاريخية حافزاً فنياً , وجمالياً للوصول بالنص إلى أعلى مراحل التأثير , والتعبير ؛ لما تحمل هذه الشخصيات من حضور واضح , وتأثير في مجريات أحداث التاريخ .

ومما لا شك فيه أنَّ شخصية الرسول (ﷺ) من أبرز الشخصيات التاريخية التي شكلت حضوراً مرجعياً واضحاً في شعر الشعراء على مختلف العصور , وخاصة شعراء العصر الإسلامي, فقد كانت صورة الرسول (ﷺ) عند هؤلاء الشعراء صورة تليق بمقامه, وكانت المادة التي يستقى منها الشعراء مادتهم الشعرية لرسم شخصيته , وإبراز مكانته بين البشر , فلم يوصف إلا بما يليق به , وينسجم مع مكانته, لذلك كان الشعراء يحرصون على انتقاء تلك الملامح التي ضمّنها في أشعارهم .

وعبدالله بن رواحة واحد من أولئك الشعراء الذين استلهموا من شخصية الرسول (ﷺ) , وجعلوها مورداً ينهلون من عذبه , وإطاراً يزخرفون به لوحاتهم الشعرية لما تحلمه هذه الشخصية من مكانة مهمة في التاريخ الإسلامي , وما عرف من سيرة شاعرنا , ومعاصرتة للرسول(ﷺ) , ومشاركته له في معارك الجهاد , واستشهاده لاحقاً في سبيل الله , ونصرة الرسول الكريم .

والمتبصر في شعر عبدالله بن رواحة يجد أنَّ ما يرتبط من الشعر بالرسول(ﷺ) , إنّما هو توضيح لما أتاهم به من رحمة مهداة من رب العالمين , ونور تبيدت به الظلمات فهو المنير لقلوب الخلق , وشهاب عمّ نوره أركان السموات والأرضين, بعبادة الله وفضله , ومن يحرم شفاعته يوم القيامة , فقد خاب , وخسر خسراناً عظيماً , وفي هذا المعنى قال ابن رواحة :

أَنْتَ النَّبِيُّ وَمَنْ يُحْرَمُ شَفَاعَتَهُ يَوْمَ الْحِسَابِ , فَقَدْ أَرَى بِهِ الْقَدْرَ

فَتَبَّتْ اللَّهُ مَا آتَاكَ مِنْ حَسَنِ تَنْبِيتِ مُوسَى وَنَصْرًا كَالَّذِي نَصَرُوا

يا آل هاشم إن الله فضلكم على البرية فضلاً ما له غير (القصاب: 159/1981)

تظهر ثقافة الشاعر الدينية , وسلوكه الأخلاقي بشكل واضح وجلي , وهو يستحضر أبعاد شخصية الرسول (ﷺ) , ومدلولاتها الرمزية , والإيحائية , لما تمتعت به هذه الشخصية من صفات انسانية , وأخلاقية , ويظهر حسن إسلامه , وإيمانه , وصدق عقيدته بالاعتراف بوحداية الله سبحانه , وتأكيداً على نبوة الرسول (ﷺ), قال : (أنت النبي), وشفيح المؤمنين يوم القيامة , وقد خسر هذه المكرمة من خالفك , وكذب رسالتك السماوية المنزلة من رب العالمين , كما أنزلت على الرسل من قبلك , كالنبي موسى (ع) , وغيره من الرسل , ثم يشهد بفضل (آل هاشم) عشيرة النبي (ﷺ) , على كل بني البشر؛ لأنَّ الله أكرمهم بأن جعل خاتم الأنبياء والرسل , ينتمي إلى فرع شجرتهم المباركة .

ويخص الشاعر في نص آخر شخصية الرسول(ﷺ) , ذاكراً صفاته الكريمة , وما تحلى به من خلق كريم :

وَفِينَا رَسُولَ اللَّهِ يَتْلُو كِتَابَهُ إِذَا انشَقَّ مَعْرُوفٌ مِنَ الصُّبْحِ سَاطِعُ

أَرَانَا الْهُدَى بَعْدَ الْعَمَى فَقَلُّوبُنَا بِهِ مُوقِنَاتٌ أَنْ مَا قَالَ وَقَعُ

يَبِيتُ يُجَافِي جَنْبَهُ عَنْ فِرَاشِهِ إِذَا اسْتَنْقَلَتْ بِالْكَافِرِينَ الْمَضَاجِعُ (القصاب : 162/1981)

استثمر الشاعر ما تحمل شخصية الرسول (ﷺ) من صفات إنسانية وخلقية كريمة , جعلته أهلاً لحمل أسمى وأجل رسالة سماوية , ففي هذه الأبيات يستدعي الشاعر بعض ما تميزت به هذه الشخصية من صفات , وما تحمل من معان

إنسانية سامية مناسبة لقدرة الكريم ، فهو يتلو كتاب الله سبحانه ، وتعالى حتى ينشق ضوء الفجر ، وكانت رسالته المباركة النور الذي بدد الظلمات ، والشعاع الذي أثار عمى القلوب ، وفي قوله الحق المصدّق ؛ لأنّه لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى ، ولم يكتف الشاعر بسرد هذه الصفات ، بل يضيف إليها صفات أخرى تدل على عظمة هذه الشخصية ، فقد كان (ﷺ) ، يقوم الليل والناس نيام حتى تورمت قدماه ، فهو الذي غفر الله له ما تقدم، وما تأخر من ذنبه ، ثم يعود في نص آخر ليكمل رسم معالم هذه الشخصية ، بطريقة توظيف أخرى ، إذ يقول مادحاً :

لَوْ لَمْ تَكُنْ فِيهِ آيَاتٌ مُّبَيَّنَةٌ كَانَتْ بَدِيهَتُهُ تُثْبِيكَ بِالْخَبْرِ

فَثَبَّتَ اللَّهُ مَا آتَاكَ مِنْ حَسَنِ فَقَوَّتْ عَيْسَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَالْقَدْرِ (القصاب: 160/1981)

يتخذ الشاعر من استدعاء هذه الشخصية ؛ الصوت الذي يعبر عن الأفكار ، والرؤى التي يؤمن بها ، ويدافع عنها ، إذ تمنح هذه الشخصية مجالاً للتعبير عما يجول في خاطره ، وفق توجيهه في يبعد النص عن المباشرة ، والسطحية من جانب ، والرغبة في اقامة علاقة بين الشخصية ، وما تحمل من رمز ، وبين المتلقي الذي يحمل في مخيلته أبعاد صور تلك الشخصية من جانب آخر ، وهنا يؤكد الشاعر رسالة النبي (ﷺ) ، ونبوءته المؤكدة بالآيات البيّنات ، أو بالبدية التي تدل عليها أخلاق هذه الشخصية ، فرسالته (ﷺ) هي امتداد لرسالة النبي عيسى عليه السلام ، وكلّ الأنبياء الذين حملوا رسالات رب العالمين على مرّ عصور البشرية .

ويوظف الشاعر شخصية تاريخية أخرى ، شكلت علامة بارزة في التاريخ الإسلامي ، والدعوة المحمدية الخالدة ، إذ تعطي هذه الشخصية التي وظيفها ابن رواحة مثلاً للشجاعة ، والنضحية في سبيل الله ، وهذه الشخصية هي شخصية (حمزة بن عبد المطلب) عمّ النبي (ﷺ) ، الذي أستشهد في معركة أحد سنة ثلاث للهجرة ، إذ يحاول الشاعر عبر استدعاء صورة هذه الشخصية الخالدة ؛ أن يعيد إلينا سيرة هذه الشخصية المجاهدة التي أخلصت للإسلام ، ونالت الشهادة في سبيل عقيدتها ، يقول ابن رواحة :

بَكَتْ عَيْنِي وَحَقَّ لَهَا بُكَاءُهَا وَمَا يُعْنِي الْبُكَاءُ وَلَا الْعَوِيلُ

عَلَى أَسَدِ الْإِلَهِ عَدَاةَ قَالُوا أَحْمَزَةَ ذَاكُمُ الرَّجُلُ الْقَتِيلُ ؟

أُصِيبَ بِهِ الْمُسْلِمُونَ جَمِيعاً هُنَاكَ ، وَقَدْ أُصِيبَ بِهِ الرَّسُولُ

أَبَا يَغْلِي لَكَ الْأَرْكَانُ هُدَّتْ وَأَنْتَ الْمَاجِدُ الْبُرِّ الْوَصُولُ (القصاب: 132/1981)

يتحول النص إلى ما يشبه حكاية بإطار رثائي خالص، تروي لنا تاريخاً ، وتقص لنا ما حدث ، عن سيرة هذه الشخصية الإسلامية العظيمة ، التي ضحت بحياتها في سبيل عقيدتها ، إذ رفضت الذل والمهانة لإعلاء كلمة لا إله إلا الله ونصرة نبيه (ﷺ)، فالبكاء ، والوعيل لا يغني شيئاً أمام فقد هذا الأسد الضرغام، الذي حزن لفراقه الرسول (ﷺ) ، والمسلمون جميعاً، ليكون توظيف الشاعر المرجعي لهذه الشخصية كمعادل موضوعي للصوت الثوري الرافض، والمناهض للظلم، وإيماناً منه بأنّ الخلود، والبقاء لكلّ شخصية تاريخية يكون عبر المواقف الخالدة ، والأهداف العظيمة ، وما تركته من أثر طيب في حياتها ، الأمر الذي جعلها شخصية خالدة على مرّ العصور التاريخية .

ويستدعي الشاعر شخصية تاريخية أخرى واكبت أحداث العصر الإسلامي ، ألا ، وهي شخصية (أبي سفيان بن حرب) ، وهنا يستدعي هذه الشخصية بطريقة أخرى تختلف عن توظيف الشخصيات السابقة ، بسبب مواقف هذه الشخصية من الدعوة الإسلامية ، والمسلمين في بداياتها ، فمن الطبيعي أن يكون هذه التوظيف مرتبباً بمواقفها ، والأحداث المرتبطة بذلك ، كالمعارك ، والغزوات بين الطرفين ، فقال فيه ابن رواحة :

وعدنا أبا سفيان بداراً فلم نجد

لميعاده صدقاً وما كان وافيًا

فأقسم لو وافيتنا فلقيتنا

لابت ذميماً وافتقدت المواليا (القصاب : 138/1981)

إذ يلجأ الشاعر الى الهجاء لرسم معالم شخصية ابي سفيان ، واستحضار صورتها فيقوم على اظهار سلبيات هذه الشخصية وصفاتها الذميمة ، والتركيز على مكنوناتها التي تهدم صورتها في ذهن المتلقي بما هي عليه حقيقة هذه الشخصية المعادية لله ولرسوله ، فليس بالقليل أن يوصف شخص بالجن ، وإخلاف الوعد ، وهذه صفات مضادة لخصال الشخصية العربية الأصيلة ، وما يجب أن تتفخر به ، ثم يعود في نص آخر ويوجه رسالة إلى هذه الشخصية التاريخية ، إذ قال ابن رواحة :

فأبلغ أبا سفيان إمّا نقيته

لئن أنت لم تُخلص سجوداً وتسلم

فأبشّر بخزي في الحياة مُعجلاً

وسبّالٍ قارٍ خالداً في جهنم (القصاب : 131/1981)

وهنا ترتفع نبرة التهديد ، والوعيد في رسالة الشاعر الموجه إلى أبي سفيان ، فتظهر لغة المسلم المؤمن الواثق المقدر ، إذ يطرح خياراته بثقة عالية ، أمام شخصية تحمل ثقلاً كبيراً بين قومها ، فيخيره في بادئ الأمر بأن يدخل في الإسلام ، ويخلص في واجبات أركانه من قيام ، وسجود ، وإن لم تفعل فسيكون الخزي ، والعار نصيبك في الدنيا ، وسرابيل القار ، والقطران في قعر جهنم ، كما وعد الله سبحانه ، وتعالى الكافرين في حياتهم الآخرة .

ب - الأيام والحوادث التاريخية :

تمثل الأيام والحروب والحوادث التاريخية ؛ نصاً مرجعياً مهماً ، يعمل كمرتكز للإشعاع المعرفي ، والنقافي الذي يضيئ مغالبي الكثير من النصوص ، فهذه الأيام ، والأحداث التاريخية لا تنتهي بانتهاء وجودها الزمني ، ولكن تبقى دلالاتها الشمولية الباقية ، والقابلة للتجدد على مر العصور (فالتاريخ ليس وصفاً لحقبة زمنية من وجهة نظر معاصرة لها ، إنّه ادراك معاصر ، أو حديث له) (زايد: 1417هـ / 120) ، فالشعراء أبناء بيئاتهم ، ولسان حال قبائلهم المدافع عنها ، لذلك وشحوا الكثير من نصوصهم إشارات تاريخية تشير إلى أحداث ، ووقائع ، وحروب ارتبطت بمفاخر قبائلهم ، وانتصاراتها ، وهم في عملهم هذا يسعون لمنح نصوصهم طاقة تعبيرية لا حدود لها ، وإضفاء نوع من الموضوعية التي تمنح هذه النصوص ديمومتها ، وبقيتها على مرّ العصور .

ففي هذه الأيام يقف الشعراء ليتحدثوا عن انتصارات قومهم ، وشجاعة فرسانهم ، وإذاعة مفاخر ، ومحامد قومهم ، وبكاء قتلاهم ، ورتاء أبطالهم ، وهجاء خصومهم ، وذكر مثالبهم ، والحط من شانهم ، فمعظم شعر عبدالله بن رواحة يدور حول الأيام بين الأوس ، والخزرج ، وهما يوم حاطب ، ويوم بعث .

وهنا يذكر الشاعر يوم (الفجار الأول) ، وهو يوم من أيام العرب المشهورة في الجاهلية، إذ هم خصماء الدهر بين قتل وإقتتال، وإلى جانب هذا القتال كان هناك معركة شعرية بين شاعر الأوس قيس بن الخطيم ، وشاعر الخزرج عبدالله بن رواحة ، فقال عبدالله راداً على ابن الخطيم :

رَمِيئًاكَ أَيَّامَ الْفُجَارِ فَلَمْ تَزَلْ

حَمِيئًا ، فَمَنْ يَشْرِبُ لَسْتُ بِشَارِبِ (القصاب : 121/1981)

يبدو أنَّ الشاعر ، وهو في مقام الفخر قد التفت إلى التاريخ باحثاً عن حادثة تعينه على ما يروم التعبير عنه ، وهنا يرتكز على أحد أيام قومه المشهورة ؛ ألا وهو يوم (الفجار الأول) ، فتوظيف الشاعر لهذا اليوم التاريخي قد مثل رمزاً تاريخياً يحمل في طياته تفصيلات الحدث التي هي مدعاة للفخر بانتصار قومه ، وشدة بأسهم ، وقوة ضربهم ، ورميهم ، حتى أصاب عدوهم الذهول ، وفقدان الرشد ، وهو في كل ذلك يوظف هذه المرجعية التاريخية المتمثلة بأحد الأيام المشهورة التي انتصر فيه قومه ، إذ اتخذ من هذا اليوم غرضاً للفخر ورمزاً لشجاعة قومه، وبسالتهم في هزيمة أعدائهم .

أمّا في العصر الإسلامي ، فقد اختلف توظيف هذه الثيمة التاريخية ، فبدل الفخر القبلي ، والتغني ببطولات القبيلة ، ورجالها ، أصبح الفخر أكثر شمولية ، وأوسع مدى ؛ فقد أصبح صوت الشاعر يمثل صوت أمة كاملة ، ويعبر من مبدأ إنساني واسع يمثل الدين الإسلامي ، والدعوة الإسلامية ، وما تحمل من معان دينية ، وأخلاقية سامية ، هذا من جانب ، ومن جانب آخر جاء هذا التوظيف ليصف معارك مشهورة بين المسلمين والمشركين ، وتتصل عن ذكر ما كان من معارك بين القبيلتين، ومن هذا المنطلق وظف الشاعر موقعة تاريخية مهمة في التاريخ الإسلامي ؛ ألا وهي معركة (بدر) التي وقعت في السنة الثانية للهجرة ، فقال :

نَسَيْتُمْ صَرْبَنَا بِقُلَيْبٍ بَدْرٍ

عَدَاةً أَتَاكُمْ الْمَوْتَ الْعَجِيلُ

عَدَاةً نَوَى أَبُو جَهْلٍ صَرِيحاً

عَلَيْهِ الطَّيْرُ حَائِمَةٌ تَجُولُ (القصاب: 133/1981)

وهنا يُدَكِّرُ الشاعر خصومه المشركين بهذه المعركة ، بلغة المقتدر الواثق من شجاعة المسلمين ، وبسالتهم ، فيتساءل كيف لكم أن تتسوا هذا اليوم الذي يذكر اسمه صراحة ، إذ هزمناكم فيه وسقيناكم مر الهوان وكأس الموت ، قبل أن تلتفظوا أنفسكم ، ثم يكمل وصف هذه اليوم بصورة مرعبة تتمثل في صورة قائد معسكر المشركين (أبو جهل) ، وقد خَرَّ صريعاً مقتولاً في وسط الميدان ، والطيور تحوم حول جثته بشكل مستدير لتقتربها ، وهي صورة ناطقة تحكي قصة انتصار المسلمين في هذا اليوم التاريخي الذي يمثل حال المسلمين، وبسالتهم في الدفاع عن مبادئهم ، وعقيدتهم ، وثبيت أركان دينهم .

المرجعية الأدبية والتراث الأدبي :

تمثل المرجعية الأدبية ، واستلهام التراث الأدبي ، مرجعية خصبة لكل الشعراء وعلى مرّ العصور بوصف هذه المرجعية : (إحدى أدوات الإبداع الإنساني المترتبة في إطار التراث الأدبي الذي ارتبط به الشاعر ارتباطاً فنياً وثيقاً مباشراً ؛ لاحتوائه على تجارب فنية عديدة خضعت بطبيعة زمانها ، ومكانها لعوامل التشكيل ، والتحويل ، والتطور) (واصل: 19/2011) ، وبعبارة أدق فإنّ هذه المرجعية تتيح للشاعر السير على نهج ، وطريقة من سبقه من الشعراء واقتفاء أثرهم في نظم القصائد ، والتمثل لصورهم الشعرية ، وإعادة معانيهم باطار فني آخر، ممزوجاً بإبداعهم المصحوب بالتجربة الخاصة لكل واحد منهم .

لقد أدرك النقاد العرب منذ القدم ضرورة تمثّل الشاعر لأشعار الماضين ، واستلهاها ضمن معانيهم ؛ لأنّ أهم أدوات الشاعر هي (الوقوف على مذاهب العرب في تأسيس الشعر ، والتصرف في معانيه في كل فن قالته العرب فيه) (العلوي: د.ت/10) ، وهنا لم يخرج عبدالله بن رواحة عن هذا العرف الأدبي ، فقد أخذ ينهل من ديوان الشعر الجاهلي ، ونتاج شعرائه ، ويوظفه في شعره ، بعد أن أيقن أنّ قوة شاعريته تكمن وراء ذلك ، فضلاً عن بروز شخصيته الأدبية بين شعراء العصر الإسلامي ، إذ تكمن وراء هذا الرافد الثقافي المهم ، وطريقته الناجحة في حسن توظيف هذه المرجعية ، وبراعته في خلق الانسجام بين النص الأصلي ، والنص الجديد ، وسعة اطلاع الشاعر على الشعر الجاهلي .

وقد أجاد شعراء صدر الإسلام , ومنهم ابن رواحة في استلهاهم , وتوظيف المعاني , من مصادرها الشعرية الأولى , فأخذوا المعنى الأول , وصاغوا منه صورة جديدة بحسب الواقعة , والتجربة التي يتحدث عنها الشاعر , فالشاعر عندما يتحدث في موضوع ما يرسم له صورة شعرية , لأنها قد تكون مستلهمة من غيره من الشعراء الذين سبقوه , وإن لم يسمع بها من قبل , أو كان قد سمعها , ونسيها إلا أن ذاكرته , ومخيلته قد أسعفته بالمعنى الجديد من غير أن يشعر بذلك , أو ربما أراد الشاعر أن يصوغ ذلك المعنى بصورة جديدة لا تدع مجالاً للشك في قدرته الذاتية المستقلة عن أفكار الآخرين , ورؤاهم , وهذا ما نجده قول ابن رواحة :

أتاني الذي لا يُقدَّرُ الناسَ قدرُهُ لزيّنَ فيهمُ منْ عُقُوقٍ ومأثمِ

وإخراجها لم يُخزِ فيها مُحمَدِ على ماقطٍ وبيننا عطر منشم (القصاب : 133/1981)

فالشاعر هنا يتحدث عما كان بين المسلمين , والمشركين من قتال شديد , وما حققه المسلمون من انتصارات أرغمت الكفار , والمشركين على الإذعان لأمر المسلمين على الرغم مما كان بينهم من أمر عظيم , ومعترك شديد , وعبد الله بن رواحة يتناص مع قول زهير بن أبي سلمى :

تداركتما عبسا وذبيان بعدما تفانوا ودقوا بينهم عطر منشم (قباوة : 15/2008)

فزهير أراد هنا بيان ما كان بين عبس , وذبيان من فناء , وهلاك , وفداحة تلك الحرب الطاحنة بعد أن دقوا بينهم (عطر منشم) لسنوات طوال , فالصورتان لم تخرجا عن القالب , والمعنى معاً , بالرغم من اختلاف الموقفين , والحادتين . ويظهر التناص بشكل واضح وجلي مع الشاعر حسان بن ثابت الذي عاصر ابن رواحة , وشارك معه في معركة الدفاع عن الإسلام , والدعوة الإسلامية , مع التفوق الكبير لحسان بن ثابت من حيث النتاج الشعري كمّاً ونوعاً , قال ابن رواحة :

عَدِمْتُ بُنْيَتِي إِنْ لَمْ تَرَوْهَا تُثِيرُ النَّقْعَ مِنْ كُنْفِي كُدَاءُ (القصاب : 155/1981)

وهنا يجاري قول حسان بن ثابت :

عَدِمْنَا حَيَلْنَا أَنْ لَمْ تَرَوْهَا تُثِيرُ النَّقْعَ مَوْعِدُهَا كِدَاءُ (مهنا : 33/1994)

أما المقدمات , وهي من التقاليد الفنية التي دأب عليها الشعراء في العصر الجاهلي , والعصور اللاحقة , فلم يخرج ابن رواحة من هذا الإطار الفني الذي دأب عليه الكثير من الشعراء , إذ وشّح الكثير من قصائده بهذه المقدمات , وفي مختلف الأغراض , فالمقدمة عند عبد الله بن رواحة لا تستقر على نمط واح , ولكن كان الحضور الأبرز للمقدمة الغزلية كما في قصيدته الجاهلية الأولى التي يفتتح بها الديوان إذ قال في مطلعها :

تَذَكَّرَ بَعْدَ مَا شَطَّتْ نُجُودًا وَكَانَتْ تَيْمَتْ قَلْبِي وَوَلِيدًا (القصاب : 117/1981)

و أيضاً في قصيدته الجاهلية الخامسة في الديوان التي مطلعها:

أشأقتك ليلي في الخليط المُجانِبِ نَعَمَ فَرَشَاشِ الدَمْعِ فِي الصَّدْرِ غَالِبِي (القصاب : 123/1981)

فهو هنا لم يخرج عن المورث الأدبي الذي نهجه , وسار عليه الشعراء الجاهليين , ومن تبعهم في افتتاح قصائدهم بمقدمات تناسب غرض القصيدة , والحالة النفسية التي يمر بها الشاعر , وتكون عتبة نصية , ومفتاحاً يفتح مغالبق النص , ويكشف أسرارها أمام القارئ , والمتلقي وتفتح له مجالاً للتأويل , والقراءة من منظوره الخاص , فالمعاني التي تناولها الشاعر

في مقدمته الغزلية ، إنما هي معان متداولة لدى الشعراء في العصر الجاهلي ، ولكنَّه صاغها في قوالب جديدة ، وصور مختلفة .

وفي جانب آخر يستلهم الشاعر عبدالله بن رواحة الصور الشعرية للشعراء الجاهليين للتعبير عن معانيه ، وما يدور في خلد من أفكار ، ومن هذه الصور صورة الرحلة ، وأدواتها التي أبرزها الناقة ، وأوصافها ، فقد كانت هذه الرحلة الوسيلة الأبرز للانتقال من مكان إلى آخر ، وما يصاحبها من مصاعب ، ومخاوف ، فاجتياز تلك المخاطر لا يقدر عليه إلا الرجل الشجاع ، ترافقه الناقة القوية الصبورة ، تعينه ، وتحمله لعبور تلك الصحراء الشاسعة المخيفة ، وهنا يستحضر عبدالله بن رواحة أدواته الشعرية المدعومة بالمورث الأدبي ، وطريقة الشعراء الجاهليين في وصف أداة الرحلة الأبرز ، وهي الناقة ، قال واصفاً ناقته :

كسوتُ فُنُودِي عِزْمِيساً فَنَصَّاتُهَا تَحُبُّ عَلَى مُسْتَهْلَكَاتِ لُؤَاجِبِ

تُبَارِي مَطَايَا تَتَّقِي بَغْيُونِهَا مَخَافَةَ وَقَعِ السَّوْطِ خُوصِ الْحَوَاجِبِ (القصاب: 124/1981)

وهنا لا يخرج الشاعر عن الإطار التصويري العام للشعراء الجاهليين ، وما درجوا عليه من وصف الناقة وإبراز أدوات الرحلة ، و العنصر الأساس فيها، فيبدأ بتجهيز ، وإكساء هذه الناقة الصلبة القوية ، وكأنَّه يتهيأ لأمر عظيم ، فرفع على ظهرها خشب الرحلة ، وراح يدفعها في الطريق ، فتمضي مسرعة لا تتوقف، وهي تباري النوق الأخرى ، فتسبقها ، وفي ذات الوقت تراقب بعينها ، وتتقي ضرب السياط التي تجبرها على قطع الطريق الواسع الممتد الذي لا ينقطع ، ويخاطب ناقته في نص آخر مادحاً ، ومنزهاً لها من الذم الذي ليست أهلاً له ، قال ابن رواحة :

إِذَا أَدَّيْتَنِي وَحَمَلْتِ رَحْلِي مَسِيرَةَ أَرْبَعِ بَعْدَ الْحِسَاءِ

فَشَأْنُكَ أَنْعَمَ وَخَلَكَ نَمٌّ وَلَا أَرْجِعُ إِلَى أَهْلِي وَرَائِي (القصاب: 151/1981)

يخاطب الشاعر ناقته خطاباً مشروطاً ، وهو يستعد لرحلة طويلة قاسية تمتد لأكثر من أربع ليال ، فإذا ما أوصلته إلى غاية مراده ، وبلوغ الهدف المنشود ، فسيكون جزاءك المدح ، والثناء لا الذم لأنك لست أهلاً له ، فلا شيء يؤنس ، ويسلي همومه سوى هذه الناقة القوية الصلبة ، وهي تقطع مجاهل الصحراء الشاسعة البعيدة ، وهنا تتجلى براعة الشاعر التصويرية التي مزج فيها بين مشاعره المتدفقة ، وما تحمل من معاناة ، وحال الناقة ، ومعاناتها لاجتياز مسافة هذه الرحلة وهذه العناصر تكاد تكون سياقات ثابتة في الرحلة، فوصف الناقة ، ونوع الرحلة ، واتجاهها ، إنما تمثل النسق الاجتماعي والثقافي الذي اعتاد عليه الشعراء الجاهليون ومن تبعهم ، من وصف للناقة ، وذكر صفاتها ، وسرعة عدوها ، ومصاعب الطريق المختلفة .

المرجعية الاسطورية :

تعد المرجعية الاسطورية من الموروثات القديمة التي نشأت مع المجتمعات القديمة ؛ لأنَّها شغلت التفكير الإنساني ، وبقيت ترافقه في جميع مراحل تطوره المختلفة لارتباطها بالعقائد ، وتفسير الظواهر المختلفة ، إذ تعد المصدر الأول ، والمنطلق لجميع المعارف، والخبرات الإنسانية التي انتشرت في كلِّ مجتمع لأنَّها تتضمن أنماط الحكمة، والمعرفة المتنوعة لكلِّ البشر ، واستدعاء الأسطورة كرمز في الشعر أمر شائع منذ بدايات الشعر العربي ، ومرحلة تطوره الأولى ، فكانت هذه المرجعية: (بديلاً، وتعويضاً لما هو واقعي ، ومادي ، أو إنَّها وسائل ، وعلامات بين الداخل الذاتي، والواقع الخارجي الموضوعي) (واصل: 44/2011) لما تحمل من قدرة على اعطاء النص الأدبي رونقاً ، وجمالاً ، وفق بناء فني عالٍ ،

يحمل مفردات الغرابة , والعجائبية , فراح الشعراء يوظفونها توظيفاً دلاليّاً , وجمالياً في تشكيل خاص داخل بنية الخطاب الشعري , إذ سعى هؤلاء الشعراء إلى خلق فني جديد أكثر إشراقاً , وأقوى دلالة في الابداع الفني عن طريق استحضر الثقافة الموروثة , واسقاطها على الواقع الحالي للشاعر , وتجربته الشعورية التي عاشها , فكان هذا التوظيف انعكاساً لتثقافته الأسطورية الموروثة من أسلافه من الشعراء .

ويجد الشاعر عبدالله بن رواحة في أسطورة (عطر منشم) ما يلائم تجربته الذاتية , إذ يعمل على توظيف هذه الأسطورة لتحمل دلالات تعبيرية أخرى يهدف منها الإشارة والإيماء إلى الموضوع المقصود . وقد قيل في أصل هذه الأسطورة أنّ (منشم) اسم امرأة عطارة من همدان , كانت تتبع العطر على المقاتلين , فكانوا إذا قصدوا حرباً غمسوا أيديهم في طيبها , وتحالفوا عليه بأن يستميتوا في الحرب , فإذا دخلوا في الحرب بطيب تلك المرأة , يقول الناس : قد دقوا بينهم عطر منشم , فأصبحت رمزاً من رموز الشر , وصار مثلاً للشر العظيم عند الناس (ينظر : الميداني : 1:381/1986) , إذ قال ابن رواحة مستحضراً هذه الأسطورة :

وإخراجها الذي لم يُخزَ فيها مُحَمِّدٌ على مَأْقِطٍ وَبَيْنَنَا عِطْرُ مَنْشِمٍ (القصاب : 130/1981)

يوظف ابن رواحة هذا الرمز الأسطوري , ليستمد منه ما يعينه في تصوير الحالة المقصودة , وفي هذه الإشارة إلى الأسطورة القديمة , ويعثها في نصه الجديد ليمنحها حياة جديدة مرة أخرى , وظهرت مهارة الشاعر في تحويل ما يحمله هذا المعتقد من معاني , ومضامين والافادة منها في بيان الدلالات المعنوية الجديدة المرتبطة بالغرض الأساس الذي جاء من أجله النص , فاستحضر هذه المرجعية الأسطورية كان نابغاً من حاجة نفسية ارتبطت دلالتها بدلالة المعتقد الأسطوري الذي تمحورت حوله دلالة النص , والمعنى البعيد المستحضر في ذهن الشاعر .

نتائج البحث :

سعى البحث إلى مقارنة النص الشعري عند الشاعر عبدالله بن رواحة , إذ تميز هذا النص بخصوصية فنية معينة , مارس فيها وعي الشاعر المرجعي ضغطه الواضح عليها , حتى أصبح هذا اللون ضرب بناء مهيم علىها , فظهرت براعة الشاعر , وقدراته في تطويع مرجعيته الثقافية , ودمجها في شعره بطريقة فنية رائعة جعلت هذه المرجعيات جزءاً لا يتجزأ من عالم الشاعر , وطريقته الفنية الخاصة , التي عملت على جعل هذه المرجعيات جزءاً من نسيج القصيدة , بل جاءت لتحقيق جملة من الأهداف الفنية , والدلالية التي أضافت للنص جمالاً فنياً , ومعرفياً , وأسهمت في ترسيخ مكانة الشاعر كأحد فحول شعراء العصر الإسلامي .

كان للمرجعية الدينية النصيب الأكبر من اهتمام الشاعر , والمورد الأكثر حضوراً في شعر عبدالله بن رواحة , فقد كان للقرآن الكريم الأثر الواضح بوصفه منبعاً من منابع الإلهام الشعري الذي وجد فيه ضالته الشعرية , فأقتبس من آياته الكثير , واستطاع أن يفك أواصر علاقتها , ويسخرها لصالح الموضوع الذي تابعه بمثل هذه الألفاظ والتراكيب , وقد دفعه إلى ذلك عاطفته الدينية , وذوقه الفني , مبتعداً في الوقت ذاته عن كلّ ما يجلب الشبهة , والإساءة للنص القرآني .

أمّا المرجعية التاريخية التي شكلت الرافد الثاني , الذي أمدّ تجربة الشاعر بمعين لا ينضب , إذ تمثل في استلهام الحادثة التاريخية من وقائع وأيام , وتوظيف الشخصية التاريخية في اطار فكري ورمزي عبر علاقة تناصية جديدة تتخذ من هذا الاتكاء التاريخي جسراً يمنح النص طاقة تعبيرية جديدة تسع على النص نوعاً من الموضوعية , والمصادقية التي تحوله إلى ما يشبه الحكاية التي تروي لنا أيام التاريخ , وشخصياته , والبارزة والمؤثرة.

ومثلت المرجعية الأدبية , واستلهاج التراث الشعري القديم , مرجعية خصبة , تلقفها الشاعر , وأحسن توظيفها , إذ أظهر الشاعر تمسكه بالتراث الشعري لمن سبقه من شعراء العصر الجاهلي , والسير على منوالهم , واتباع طريقتهم في بناء القصيدة , واستلهاج معانيهم , وصورهم المختلفة , الأمر الذي يدل على سعة اطلاع الشاعر , وثقافته العالية , واتصاله بهذا الإرث الأدبي الكبير .

أمَّا استدعاه للمرجعية الأسطورية , فقد جاء ليوافق سياقه في التعبير الشعري , وخدمة مضمونه , فجاء هذا الاستدعاء مطابقاً مع الموقف , والسياق , ولم تكن حشواً في التعبير , أو إقحاماً في التركيب الشعري , وقد أظهر تحرراً فكرياً , وعقلياً مستنداً إلى الثابت الإسلامي , ومدفوعاً بأهمية ربط الأسطورة بالشعر , لبعث الجوانب الخيالية , والنفسية , مما يمنح النص خطاباً أسراً بما يثيره من رموز ودلالات .

المصادر والمراجع :

• القرآن الكريم .

- 1- أثر القرآن في الأدب العربي في القرن الأول الهجري ، د. ابتسام مرهون الصفار ، دار جهينة ، عمان ، ط1 ، 2005 م .
- 2- استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر ، د. علي عشري زايد ، دار الفكر العربي ، بيروت ، 1417 هـ .
- 3- التناص التراثي في الشعر العربي المعاصر ، عصام حفظ الله واصل ، دار غيداء للنشر والتوزيع ، ط1 ، 2011 م .
- 4- توظيف المرجعيات الثقافية في شعر محمد مردان ، محمد جواد علي ، دار ضفاف ، بغداد ، 2013 م
- 5- جمهرة أشعار العرب: أبو زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي، دار صادر، بيروت، 1963م.
- 6- الخطاب الأدبي ، محمد خرماش ، مجلة حوليات الجامعة التونسية ، العدد (38) ، 1990 م .
- 7- ديوان حسان بن ثابت ، تحقيق : عبد مهنا ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط2 ، 1994 م .
- 8- ديوان عبدالله بن رواحة ، د. وليد القصاب ، دار العلوم ، الرياض ، ط1 ، 1981 م .
- 9- سيكولوجية القصة في القرآن ، التهامي نقرة ، الشركة التونسية ، تونس ، ط1 ، 1971 م .
- 10- شرح ديوان زهير بن ابي سلمى ، تحقيق : فخر الدين قباوة ، مكتبة هارون الرشيد ، سوريا، 2008 م
- 11- طبقات فحول الشعراء ، محمد بن سلام الجمحي ، تحقيق ، أبو فهر محمود محمد شاكر ، السفر الأول ، المدني المؤسسة السعودية بمصر ، 1980 .
- 12- عيار الشعر ، ابن طباطبا العلوي ، تحقيق : د. محمد زغلول سلام ، دار الكتب العلمية ، بيروت . (د . ت) .
- 13- قصص القرآن الكريم دلاليًا وجماليًا ، د. محمود البستاني ، مؤسسة السبطين ، ط2 ، 1428 هـ .
- 14- قضايا الشعرية ، رومان ياكبسون ، دار توبقال للنشر ، المغرب ، 1988 م .
- 15- لسان العرب لابن منظور ، أبو الفضل جمال الدين ، دار صادر ، بيروت ط1 . 1955 .
- 16- مجمع الامثال ، ابو الفضل احمد بن محمد الميداني ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، المكتبة العصرية ، بيروت ، ط1 ، 1986 م
- 17- مدخل في نظرية النقد الثقافي المقارن ، د. حفاوي بعلي ، دار الاختلاف ، الجزائر ، ط1 ، 2007 م .
- 18- مشكلة الثقافة ، مالك بن نبي ، دار الفكر ، سوريا ط4 ، 1984 م .
- 19- معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة ، د. سعيد علوش ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، 2003 م .
- 20- المعجم الوسيط، جماعة من المؤلفين، مجمع اللغة العربية في القاهرة، ط4، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، 2004 م .
- 21- المنهج الاسطوري في تفسير الشعر الجاهلي ، عبد الفتاح محمد أحمد ، الهيئة المصرية للكتاب ، 1986 م .
- 22- المؤلف والمختلف في أسماء الشعراء وكناهم وألقابهم وانشابهم وبعض شعرهم ، الحسن بن بشر الأمدي ، تحقيق عبد الستار أحمد فراج ، دار الجبل بيروت ط1 ، 1991 م .
- 23- وحدة الثقافة والتاريخ في الشعر الحديث ، أحمد محمد الحوفي ، معهد الدراسات العربية العالية ، القاهرة ، 1965 .